الفصل الأول

يقول ونستون تشرشل في بداية مذكراته وتحت عنوان :جهل المنتصرين عن الفترة الزمنية من (١٩١٩ ـ ١٩٢٩)

obeikandl.com

obeikandl.com

يبدأ تشرشل مذكراته التي كتبها بأسلوب بسيط يقول :

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، كان هناك اعتقاد شامل ، في العالم كله، بأن السلام سيسود العالم ، وكان ممكنًا تحقيق هذه الأمنية القلبية لدى الشعوب ، وذلك بواسطة التزام الثبات على المعتقدات العقائدية الصحيحة، والمنطق السليم ، وبعد النظر ، وكان شعار «حرب من أجل إنهاء الحرب» يتردد على كل لسان وقد اتخذت الإجراءات اللازمة لتحويل هذا الشعار إلى حقيقة واقعة ، وقد تمكن الرئيس ولسن ، عن طريق نفوذ الولايات المتحدة من جعل مفهوم عصبة الأمم ، يطغى ويدخل جميع العقول ، وشكلت الوكالة البريطانية في فرساي هذه الفكرة وكونتها وحولتها إلى آلة ستبقى دائمًا مقاسًا لطريق تقدم الإنسان ، وكانت جيوش الحلفاء ، المنتصرة، بالنسبة لهزيمة الأعداء مضطرة إلى مجابهة مصاعب داخلية ، لا تعرف كيف تقضي عليها ، لكن القوة التوتونية المتكتلة في أوروبا الوسطى قد أضحت مطروحة أمامهم الآن ، كما أن روسيا التي هشمتها المطارق الألمانية كانت هي الأخرى مضطربة نتيجة للحرب الأهلية التي أوقعتها في قبضة الأحزاب البلشفية أو الشيوعية .

الحرب العالمية الأولى

أحداث ١٩١٩ كما يراها تشرشل:

يقول تشرشل: في صيف عام ١٩١٩ وقفت الجيوش الحليفة على ضفاف الراين ورؤوس جسورهم امتدت داخل ألمانية المهزومة، المنزوعة السلاح، والجائعة واجتمع قادة الدول المنتصرة في باريس ليبحثوا في أمر المستقبل ويخططوا له، وأمامهم كانت خريطة أوروبا كي يعيدوا رسمها حسبما يرونه ويتفقون عليه، لقد أصبح التكتل التوتوني تحت رحمتهم بعد اثنين وخمسين شهرًا من الألم والمخاطر، ولم يكن في إمكان أية دولة من دوله الأربع، أن تعارض مشيئة المنتصرين، وألمانية المعتبرة الرأس المدبر للأذية وواجهتها والسبب الأول للكارثة التي أحاقت بالعالم، أصبحت الآن تحت رحمة المنتصرين الذين كانوا يترنحون من العذاب الذي قاسوه أثناء الحرب، لقد كانت الحرب حرب شعوب لا حكومات، فقد امتزجت جميع طاقات الحياة داخل أتونها الملتهب، وفي اجتماع قادة الحرب في باريس، كانت التيارات العنيفة تتجاذبهم من كل صوب، فقد ولت أيام معاهدات أو تراخت وفينا، عندما كان الساسة والدبلوماسيون و الأرستقراطيون، سواء أكانوا من الفريق المنتصر أم المهزوم، يجتمعون ليدخلوا في نقاش لطيف مهذب، بعيدًا عن هتافات الديمقراطية وصخبها، كي يصلوا بالنتيجة لوضع الأنظمة التي لا خلاف حولها في الأساس، وكانت الشعوب التي تشربت بالتعاليم والدعاوات تطالب بإنزال أقصى العقوبات بالمنهزمين، ثأرًا لملايين الضحايا من البشر، والويل للذين يفرطون بمكاسب الجنود ويضيعونها على طاولة المؤتمر.

كان زمام القيادة في يد فرنسا التي أسكتت به بفضل جهودها وخسائرها الفادحة، وبفضل المليون والنصف من الضحايا من الجنود الذين لاقوا حتفهم دفاعًا عن الأرض الفرنسية، فقد شاهدت كنيسة نوتردام، خلال قرن من الزمن، خمس مراث وميض المدافع الألمانية، وسمعت ضجيجها الرهيب خلال أعوام ١٨١٤ و ١٨١٥ و ١٨٧٠ و١٩١٤ و١٩١٨، وخلال السنوات الأربع الرهيبة، وقعت تحت نير الاحتلال العسكري الروسي ثلاث عشرة مقاطعة فرنسية، وقد دمر العدو مساحات كبيرة من الأراضي الفرنسية، ولم تخل مزرعة واحدة أو عائلة واحدة من العائلات الفرنسية التي تعيش بين فردان وطولون من مأساة لفقدان عزيز، أو رجوعه مشوهًا من الحرب لقد كان الفرنسيون يعيشون في

رهبة مستديمة من الإمبراطورية الألمانية الجبارة، وكانت ذكرى الحرب الوقائية التي أراد بسمارك شنها عام ١٨٧٥ لا تزال عالقة في أذهانهم بالإضافة إلى التهديد الذي أدى إلى سقوط حكم دكلاسيه عام ١٩٠٥ م، وكانت خطب غليوم، النارية، وتهديداته التي كانت تقابل بالسخرية في إنكلترا وأميركا، كانت تدخل الهلع في قلوب الفرنسيين الذين عاشوا خمسين عامًا تحت ظل الإرهاب الألماني وتهديداته، والآن لقد جنوا ثمرة الدماء والتضحيات، فزال الخطر والظلم، وحل محله السلم والأمن، وكنت تسمع الشعب الفرنسي يردد عبارة واحدة لا غير هي «أبدًا، مرة أخرى».

لكن الخوف من المستقبل لا يزال قائمًا، فالشعب الفرنسي لا يبلغ بعدده ثلثي الشعب الألماني، الذي يزداد نموه سريعًا، ولن يمضي وقت طويل حتى يتضاعف عدد القادرين على حمل السلاح في ألمانيا، وقد جابهت ألمانيا العالم كله وحاربته منفردة تقريبًا، وكادت أن تبلغ النصر، وكان المراقبون يعلمون أن نتيجة الحرب كانت، أكثر من مرة، تميل بفضل بعض الحوادث العرضية وحسن الحظ، نحو الحلفاء.

وعندما عادت الجيوش الألمانية، يوم الهدنة، إلى وطنها قال الجنرال فوش، القائد الأعلى للقوات الحليفة: «لقد حاربوا بشجاعة، لذلك يجب أن تتركوهم يحتفظوا بسلاحهم»، وفي نفس الوقت طلب أن تصبح حدود فرنسا على نهر الراين، منذ الآن، وربما ستجرد ألمانيا من السلاح، وقد يتلاشى جهازها العسكري وتجرد قلاعها من سبل الدفاع، وربما سيفرض الفقر على ألمانيا بعد أن تفرض عليها أعباء ضخمة من التعويضات، لكن هذه بأكملها ستبقى ظروفًا طارئة وستزول بعد عشر سنوات أو بعد عشرين سنة، وستنطلق من جديد صيحة القبائل الألمانية بمجموعها وترتفع نيران بروسيا المحاربة مرة من أخرى، لكن الراين ذلك النهر الكبير الشديد العمق، سيكون بمثابة الدرع الواقعي الذي تركن وراءه فرنسا وتشعر بالاطمئنان لأجيال قادمة طويلة، لكن آراء العالم الآخر الناطق باللغة الإنكليزية، ومشاعره كانت تختلف عن ذلك، وهذا العالم له قيمته وأهميته الكبرى، فلولا معاونته لها لما استطاعت النجاة، وهكذا جاءت الاتفاقات في معاهدة فرساي منسجمة مع وضع ألمانيا، إذ تركتها بلدًا سليمًا غير مجزأ، فبقيت ألمانيا أكبر مجموعة عنصرية في قارة أوروبا، وعندما استمع المارشال فوش إلى نص اتفاقية الصلح في فرساي، علق عليها بقوله: «إنها ليست سلامًا، بل هدنة لمدة عشرين سنة».

رأي تشرشل في اتفاقية فرساي:

يقول تشرشل :

كانت البنود الاقتصادية في تلك المعاهدة سخيفة إلى حد جعلت منها بنودًا غير صالحة، فقد وجب على ألمانيا أن تدفع مبالغ هائلة كتعويضات ، وكان هذا المطلب ليس إلا تعبيرًا عما يشعر به المنتصرون من غضب ومن فشل لدى الشعوب في تفهم الحقيقة الواقعة وهي أن ليس في وسع أي شعب أن يقوم بدفع هذه الجزية التي تتفق مع متطلبات الحرب العصرية ،

وكانت الشعوب غارقة في الجهل لأبسط القواعد الاقتصادية ، وكان قادة الشعوب، بدافع من حرصهم على الأصوات الانتخابية ، لا يتجرؤون على توضيح هذه الحقيقة ، ولكن بعض الأصوات الضعيفة ارتفعت لتوضح أن دفع تلك التعويضات لن يتم إلا عن طريق الخدمات أو عن طريق شحن البضائع بواسطة القطارات أو البواخر ، وعند وصول تلك البضائع إلى البلاد التي فرضتها فستطغى على الصناعة المحلية ، وكانت الطريقة الوحيدة لسلب شعب مهزوم ، هي في نقل كل ما هو قابل للحركة، ثم في سوق قسم كبير من رجاله إلى العبودية الدائمة أو المؤقتة، لكن الأرباح الناجمة عن عمليات كهذه لا تتناسب مع نفقات الحرب ، ولم يكن في وسع أي زعيم أن يجرؤ على الجهر بهذه الحقيقة المؤلمة للجماهير الناخبة ، لذلك استمر الحلفاء بتجبههم بأنهم سيستمرون في عصر ألمانيا حتى «يسمع صرير أنابيبها» وبالتالي تختنق ، وكان لهذا أثر كبير في ازدهار العالم، وفي أوضاع العنصر الألماني .

لكن هذه البنود من المعاهدة لم تنفذ ، فقد حصل العكس تمامًا ، فبعد أن صادر الحلفاء موجودات ألمانيا بمبلغ ألف مليون جنيه ، قاموا هم أنفسهم فيما بعد وعلى رأسهم بريطانيا وأميركا بإعطاء ألمانيا قرضًا بمبلغ ألف وخمسمائة مليون جنيه ، وذلك لترميم ما دمرته الحرب في بلادها وبأسرع وقت ممكن ، كل هذا ولم يزل ساسة الشعوب المنتصرة يذكرون أن ألمانيا ستدفع لآخر بنس كل التعويضات رغمًا عنها .

إن التاريخ سيصف هذه العمليات بالجنون ، لقد ساعدوا على تنمية اللعنة العسكرية و«الزوبعة الاقتصادية » ، وبدأت ألمانيا بالاستدانة من جميع الجهات وتبتلع بسهولة جميع

المساعدات الممنوحة إليها بسخاء، إن هذه هي قصة محزنة من الغباء المعقد الذي استنزف فيها الكثير من الجهد والفضائل.

❖ ❖ ❖

تشرشل يغازل الفرنسيين:

يقول تشرشل :

لقد استنزفت الحرب دماء فرنسا، وانتصر الشعب الفرنسي بعد أن ظل منذ عام ١٨٧٠م يحلم بالثأر، لكن هذا الانتصار كلفه غاليًا، ولكن الخوف من ألمانيا ظل يعكر صفو احتفالات الشعب الفرنسي بالنصر، ولا شك كان هذا الخوف المتأصل هو الذي دفع المارشال فوش إلى المطالبة بجعل نهر الراين حدا فاصلا لفرنسا، وذلك كي يضمن سلامة فرنسا من جارتها القوية، لكن الساسة البريطانيين والأمريكيين أصروا على تمسكهم بالنقاط الأربع عشرة، التي تتعارض مع مطالبة فرنسا بضم جزء من الأراضي الألمانية إلى ممتلكاتها، بالإضافة إلى أن هذه المطالبة تتعارض مع مبادئ القومية وحق تقرير المصير التي قامت معاهدة الصلح هذه على أسسها، وقد تمكن هؤلاء من كسب كليمنصو إلى صفوفهم حين تمكنوا من إقناعه بأنهم سيقومون بضمان حدود فرنسا، وإقامة منطقة غير عسكرية ثم تجريد ألمانيا من السلاح بصورة كلية ودائمة، وسرعان ما وافق كليمنصو على هذه الضمانات بالرغم من معارضة المارشال فوش لها، ولم يلبث أن وقع ريلسون ولويد جورج وكليمنصو على معاهدة الضمان تلك، إلا أن مجلس الشيوخ الأميركي رفض أن يصدق على توقيع الرئيس ويلسون، وقد قبل لنا نحن بأنه يترتب علينا أن نكون على علم ومعرفة بنصوص الدستور الاميركي، نحن الذين كنا نرضخ لآراء الرئيس ويلسون ورغباته بما يتعلق بقضايا السلام.

لكن الشعب الفرنسي أسقط الرجل الصلب كليمنصو، في إحدى نزواته الخائفة الغضبة، وكما قال بلوتارك: «إن الجمود نحو الرجال العظام، هو من ميزات الشعوب القوية»، وكانت ضربًا من الحماقة أن تلجأ فرنسا إلى هذا الأسلوب، سيما في الوقت الذي أصبحت فيه شديدة الضعف، وجاء بوانكاريه إلى سدة الحكم، الرجل ذو الشخصية القوية

خليفًا لكليمنصو ، فحاول أن يجعل من المنطقة المحيطة بالراين ، أرضًا مستقلة تحت حماية فرنسا وإشرافها ، إلا أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح ، وكانت محاولته في غزو منطقة الروهر كمحاولة لفرض التعويضات على ألمانيا ، لكن هذا الغزو أثار النقمة لدى الرأي العام البريطاني والأميركي ، بالرغم من اتفاقه مع نصوص معاهدة فرساي ، وكانت النتيجة أن تدهورت أوضاع ألمانيا الاقتصادية والمالية ، وأدى ذلك إلى تدهور المارك الألماني بسبب التعويضات الباهظة التي دفعتها خلال عامي ١٩١٩م و ١٩٣٧م ، كما أن موجه الغضب والكراهية التي اجتاحت ألمانيا ، نتيجة لغزو منطقة الروهر ، دفعت بالمسؤولين إلى طبع كميات هائلة من الأوراق النقدية ، بقصد القضاء على النظام الاقتصادي برمته ، وأصبح الجنيه الإسترليني يعادل ثلاثة وأربعين مليون مليون مارك ألماني ، وقد أدى هذا التضخم الفظيع إلى تلاشي المبالغ التي وفرتها الطبقات الوسطى ومالت بطبيعتها نحو الحركة الاشتراكية الوطنية ، وتشوه النظام الصناعي الألماني بأكمله نتيجة لنمو الاحتكارات ، واختفى الرأسمال العامل من البلاد ، وبالتالي ألغيت القروض الداخلية والديون الصناعية القائمة على الرهونات والفوائد ، لكن هذه لم تعوض عن خسارة رأس المال العامل ، وأسفرت النتيجة عن قروض خارجية تعط لأمة مفلسة ، وهي الصورة التي تبلور عنها الموقف في السنوات التالية.

أما بالنسبة لبريطانيا فقد تحول موقفها تجاه ألمانيا ، تحول من العنف إلى العطف ، ونشبت الخلافات بين لويد جورج وبوانكاريه واتسعت حدة الشقاق بين الشعبين قلبًا وقالبًا ، ووجد العطف الإنكليزي على ألمانيا ، أو الإعجاب بها ، صدى حسنًا قويًا .

وما إن ظهرت عصبة الأمم إلى الوجود حتى تلقت ضربة قوية ، إذ تخلت عنها الولايات المتحدة ، وأصيب الرئيس ويلسون بالشلل ، بعد أن كان مستعدًا للكفاح من أجل مثله العليا وعقائده ، وأصبح بعد ذلك كتلة من الحطام وأصيبت سياسته وسياسة حزبه بهزيمة ساحقة في معركة الرئاسة ، وفاز الديمقراطيون في عام ١٩٢٠ ، وفي عشية فوز الديمقراطيين ، سيطرت المفاهيم الانعزالية على الناحية الأخرى من المحيط الأطلسي ، وكان على أوروبا أن تجني ما زرعته وتدفع ثمن ديونها ، وفي نفس الوقت ازدادت التعريفة

الجمركية وذلك للحيلولة دون دخول البضائع التي يمكن لوارداتها أن تسدد بعض الديون، وراحت بعد ذلك الحكومتان البريطانية والأمريكية تحطم وتغرق بواخرها ومنشآتها العسكرية، وذلك لأنه من غير اللائق أن ينزع السلاح من يد المغلوب ويبقى في يد الغالب، كما اعترضت أميركا لدى بريطانيا عن أن الاستمرار في علاقاتها الودية مع اليابان سيشكل بعض الخطر على مجرى العلاقات البريطانية، الأمريكية، مع أن اليابان كانت تحترم هذه العلاقات وتحافظ عليها بكل صدق، وبناء لهذا التحذير، اضطرت بريطانيا إلى قطع تلك العلاقات مع اليابان مما أدى إلى استياء الحكومة اليابانية، واعتبرت أن هذا التصرف يعتبر امتهانا من بلد آسيوي أوروبي نحو شعب آسيوي صديق.

لقد كان باستطاعة اليابان أن تعتبر نفسها ثالث دولة بحرية بعد هزيمة ألمانيا وروسيا فتتمتع بمركز مرموق، ورغما عن أن الاتفاق البحري يقضي بأن يخصص لليابان نسبة خمسة إلى ثلاثة من السفن المخصصة إلى الدولتين الكبيرتين، إلا أن هذه النسبة كانت مناسبة لإمكانيات اليابان المالية للسنوات التالية، وبالتالي راحت تراقب الانخفاض الكبير في الإنتاج الأميركي والبريطاني بالنسبة لإمكاناتها المالية ومسؤولياتها الجسيمة، وبذلك يكون الحلفاء قد مهدوا لتجدد الحرب في أوروبا وآسيا، وباعتقادهم أن هذا قد يؤدي إلى السلام الدائم.

وفي أوروبا أخذ الخلاف الجديد الأكثر فظاعة يبرز إلى حيز الوجود، هذا الخلاف الرهيب الذي خلفته الحرب الأهلية الروسية وانتصار الثورة البلشفية الساحق، فبالرغم من أن الجيوش السوفييتية المتقدمة نحو بولندا، قد صدت في معركة وارسو، إلا أن ألمانيا وإيطاليا قد بدأتا تذعنان للدعاوي الشيوعية ومشاريعها، كذلك هنغاريا التي سقطت في قبضة الدكتاتور الشيوعي بيلاكون، وبالرغم من أن المارشال فوش لاحظ بحكمة بأن «البلشفية لم تتخط حدود النصر»، إلا أن أسس الحضارة الأوروبية اهتزت في السنوات الأولى بعد الحرب، فالفاشية كانت ظل الشيوعية أو وليدها البشع، وبينما كان العريف هتلر يحاول تقديم خدماته على الضباط الألمان في ميونيخ، ويحرض الجنود والعمال ويغذي في صدورهم الحقد على الشيوعية واليهود الذين ألقى بمسؤولية الهزيمة عليهم، كان هناك

مغامر آخر ، بينيتو موسوليني الذي قدم لإيطاليا نموذجًا جديدًا من الحكومة التي صرحت بأنها ستنقذ الشعب الإيطالي من الشيوعية ، ورفع نفسه إلى قمة الدكتاتورية ، وكما انبثقت الفاشية عن الشيوعية ، كذلك النازية تطورت من الفاشية ، وهكذا تمكنت هذه الحركات من الوقوف على قدميها وتمكنت بعد ذلك من جر العالم إلى صراع عنيف لا يمكن للمرء أن يقول أنه انتهى بانتهائها ...

❖ ❖ ❖

(تشرشل يحكي المأساة):

يقول تشرشل :

في هذه الصفحات ، سأحاول أن أقص قصة أسوأ مأساة تعرض لها الجنس البشري في تاريخه المضطرب ، إن المأساة المخيفة لم تقتصر على الضحايا وعلى الدمار الذي لابد منه في الحروب، ففي الحرب العالمية الأولى وقعت مجازر رهيبة ، كما فقدت كنوز كثيرة من الثروات التي جمعتها الشعوب... وإذا ما استثنينا الأعمال العنيفة التي حصلت أثناء الثورة الروسية ، فإن الحضارة الأوروبية ، بقيت ولم تزل حال انتهاء الحرب العالمية ، كما أن الشعوب المتحاربة عادت لتعترف ببعضها البعض، وبقي الجميع يحترمون القوانين والأعراف الحربية ، كما أن معاهدة الصلح كانت منسجمة مع المبادئ المتبعة في القرن التاسع عشر بين الشعوب المتحضرة ، كذلك يمكن القول أن الجهاز الدولي الذي أنشئ لحمايتنا كلنا ، وخاصة حماية أوروبا نفسها ضد أخطار جديدة .

إلا أن الحرب العالمية الثانية ، لم تكن كذلك ، لقد زالت الروابط التي كانت تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان ، لقد قام الألمان ، تحت الحكم الهتلري باقتراف جرائم منكرة وحشية لا مثيل لها، ولاشك أن المجازر التي أودت بحياة ستة أو سبعة ملايين رجل وامرأة وطفل في معسكرات الاعتقال الألمانية قد تطغى على جرائم جنكيز خان الهائلة ، وتفوقها وحشية ، وقد رسمت المخططات أثناء الحرب في الجبهة الشرقية لإفناء شعوب بأسرها على أيدي الجنود الألمان والروس، أما من ناحية الحلفاء أنفسهم فقد قاموا بغارات وحشية تفوق الغارات الألمانية عشرين مرة، بل كانت تزداد حدة يومًا بعد يوم ، إلى أن بلغت ذروتها في إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكي وإزالتهما من الوجود .

والآن بعد أن خرجنا من جو الخراب المادي والمعنوي، نجد أننا لا نزال نواجه نفس المشاكل والأخطار التي تخلصنا منها بأعجوبة، هذا إذا لم نقل أنها أشد وأدهى.

سأحاول أن أكشف للقارئ كيف كان بإمكاننا تجنب وقوع حرب عالمية ثانية، نظرًا لكوني عشت هذه الأيام وعملت فيها، سأحاول أن أبين كيف أن ضعف الفضلاء قد أدى بالنتيجة إلى تقوية الأشرار، كما سأبين أن أجهزة الدول الديمقراطية تفتقر إلى مقومات الإيمان ما لم تندمج مع أجهزة أقوى وأكبر منها، إن مقومات الإيمان والثبات هي التي تتمكن من إحلال الأمن والسلام والطمأنينة في نفوس الجماهير، كما أني سأبين كيف ألا يمكن لأي سياسة أن تستمر لعشر أو لخمس عشرة سنة في آن واحد، وذلك في قضية الدفاع عن النفس والمحافظة عليها، وسنرى كيف أن اتباع سياسة التردد قد تصبح عاملاً أساسيًا للخطر، وكيف أن الحل المعقول الذي ينبع من الرغبة في السلامة والحياة الهادئة قد يؤدي بنتيجته إلى مواجهة الكارثة، كما أننا سنرى أنه من الضرورة القيام بعمل دولي مشترك بين دول يرجع تآلفها إلى سنين سابقة، دون الالتفات إلى التيارات المتماوجة في السياسة القومية.

لقد كانت سياسة إبقاء ألمانيا مجردة من السلاح، سهلة الحفاظ عليها، وإبقاء المنتصرين بسلاحهم الكامل لمدة ثلاثين سنة على الأقل، وبنفس الوقت بذل المحاولات لجعل مسألة التفاهم مع ألمانيا حقيقة واقعة، وإنشاء عصبة للأمم قوية قادرة على الحفاظ على المعاهدات وتطبيقها، ولا تغير أو تبدل دون اللجوء إلى المفاوضات والاتفاقات، وعندما تتعاون ثلاث أو أربع دول قوية، وتطلب من شعوبها تقديم أقصى ما يمكنها من تضحيات، وتقوم هذه الشعوب بتضحياتها في سبيل الهدف المشترك، عند ذلك تصبح النتائج المطلوبة معقولة جدًا، إلا أن قوة المنتصرين وعلمهم وثقافتهم كانت عاجزة عن الوصول إلى هذه النتيجة المتواضعة، فقد ظلوا يعيشون ليومهم دون التفكير بالغد، وعندما دقت طبول الحرب العالمية الثانية، كان من الواجب أن نكتب عن أبناء الذين حاربوا وقتلوا بكل إخلاص:

كتفًا إلى كتف، وجنبًا إلى جنب.

اجتازوا نور الحياة المشرقة.

obeikandl.com